

تدبر القرآن وأثره في تزكية النفوس

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

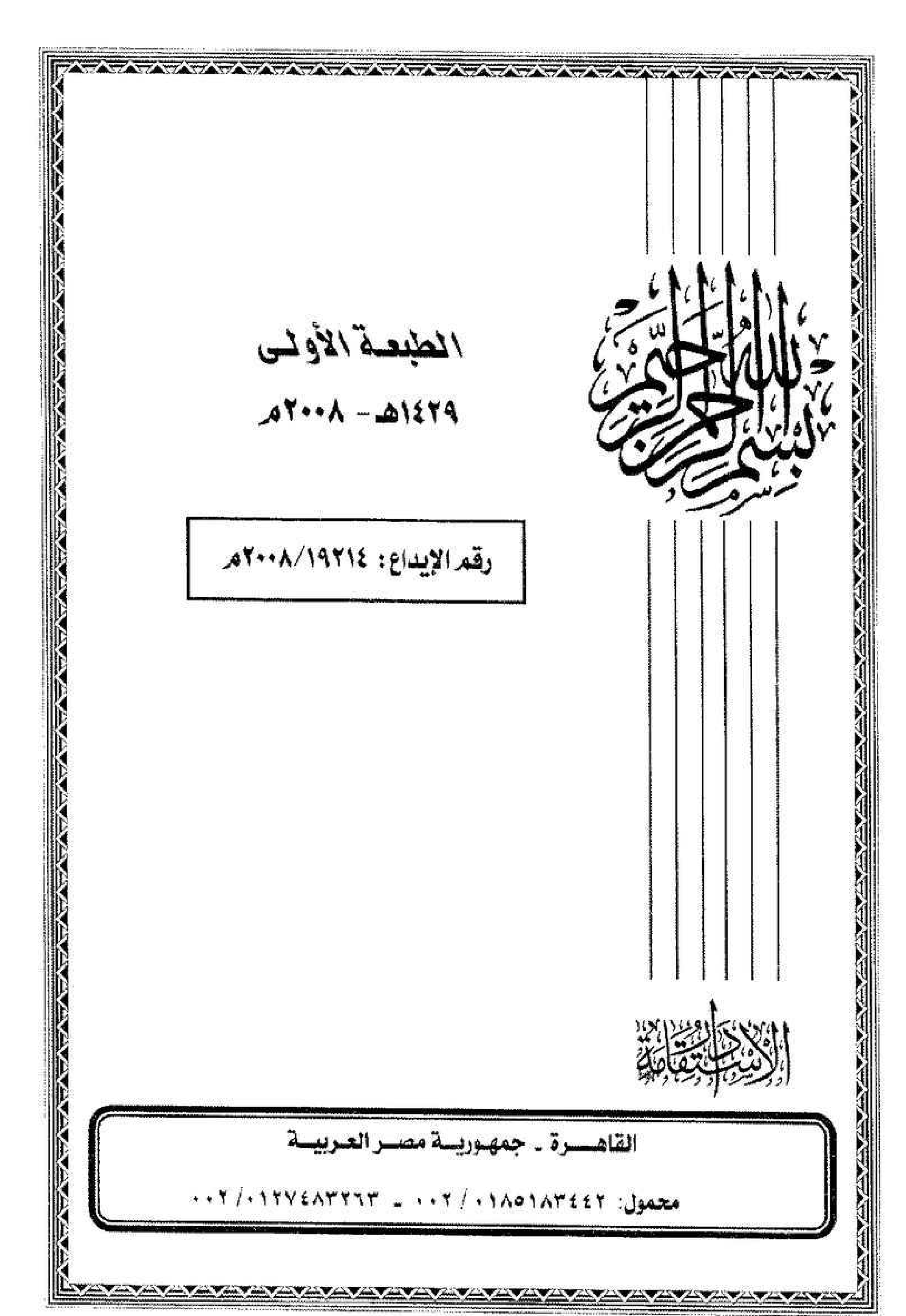
محمد بن عمر بن سالم بازمول

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة



دار الاستقامة



الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ١٩٢١٤/٢٠٠٨م

القاهــرة - جمهوريــة مصــر العربيــة
محمول: ٠١٨٥١٨٣٤٤٢ / ٠٠٢ - ٠١٢٢٧٤٨٣٢٦٣ / ٠٠٢

تدبر القرآن

وأثره في تزكية النفوس

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن عمر بن سالم بازمول

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة




بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه محاضرة بعنوان:

« تدبر القرآن وأثره في تزكية النفوس »

ألقيت مجملها ليلة السبت ١٤/٣/١٤٢٩هـ، عبر الهاتف على إخوة من الجزائر.

وظاهر من هذا العنوان أن المحاضرة تدور على ثلاثة محاور:

المحور الأول: تدبر القرآن الكريم.

المحور الثاني: تزكية النفوس.

المحور الثالث: فوائد تزكية النفوس على العبد.

وتحت كل محور ما يتعلق به من العناصر!

وأسأل الله بأن له الحمد لا إله إلا هو، الحنان المنان، بديع السموات

والأرض ذو الجلال والإكرام أن يتقبل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة؛ إنه سميع مجيب.

وصلِّ اللهم علىٰ محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.



المحور الأول:
تدبر القرآن الكريم

ويشتمل على العناصر التالية:

١ – معنى التدبر.

٢ – الأمر بالتدبر.

٣ – أركان التدبر.

٤ – مقاصد القرآن والتدبر فيها.

٥ – وسائل التدبر.

وبيان هذه العناصر فيما يلي:

١- معنى التدبر:

التدبر في اللغة: من الدبر، وهو آخر الشيء. دبر الدابة: آخرها. والتَّدْبِيرُ والتدبر في الأَمر: النَّظَرُ في عاقِبةِ الأمرِ، أي: أَن تنظر إلىٰ ما تَئُول إليه عاقبته. والتَّدَبُّر: التفكر فيه؛ أَي: تَحْصِيل المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالثة؛ فالتَّدبُّر هو التَّفَكُّر والتَّفَهُّم.

والتدبر والاعتبار: العِبْرَةُ: الاعْتِبارُ بما مضَىٰ. والاعْتِبَارُ: هو التَّدَبُّرُ والنَّظَرُ.

فالاعتبار هو الحالةُ والهيئة النفسانية التي يُتَوَصَّلُ بها من معرفَةِ المُشَاهَد إلىٰ ما ليس بمُشَاهَدٍ[1].

وفي الاصطلاح: التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر: تصرفه بالنظر في العواقب[2].

وفي الشرع: التدبر هو النظر والتفهم والتفكر في عاقبة ما تئول إليه الأمور التي ذكرها الله في القرآن الكريم، والاستفادة من ذلك في إيمان العبد، وظهور أثره في جوارحه.

وهذا المعنىٰ مستخلص من تتبع معاني التدبر في الشرع.

(١) مادة (د. ب. ر) لسان العرب، القاموس المحيط، تاج العروس.

(٢) التعريفات للجرجاني (ص٧٦).

٢- الأمر بالتدبر:

وقد جاء الأمر بالتدبر في القرآن العظيم في آيات كثيرة؛ منها:

قول الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وقوله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وقوله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

قال محمد بن الحسين الآجري: «ألا ترون -رحمكم الله- إلىٰ مولاكم الكريم كيف يحث خلقه علىٰ أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب ﷻ، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله علىٰ المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء، فاستغنىٰ بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة السورة إذا افتتحها: متىٰ أتعظ بما أتلوه، ولم يكن مراده متىٰ أختم السورة؛ وإنما مراده متىٰ أعقل من الله الخطاب؟ متىٰ أزدجر؟ متىٰ أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة

لا تكون بغفلة، والله الموفق»[١] اهـ

وليلاحظ هنا أن المقصود بالتدبر ليس مجرد العملية العقلية، أو مجرد التلاوة، بدون أن يظهر أثر ذلك في القلب بزيادة الإيمان وما يلازمه من العمل الصالح في الجوارح.

عن مجاهد في قوله ﷻ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]. قال: «يعملون به حق عمله»[٢].

ولذلك جاءت الآيات في القرآن مشيرة إلىٰ ذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ

---

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٤-٥).

(٢) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٥).

يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

ولذلك قلت في تعريف التدبر شرعًا: «والاستفادة من ذلك في إيمان العبد وظهور أثره في جوارحه».

وقد جاء عن السلف ذم من يقرأ القرآن ولا يتفهمه، ولا يعلم ما فيه ولا يعمل به!

ذكر القرطبي في تفسيره[١] عن أبي بكر الأنباري بسنده عن زياد بن مخراق قال: قال عبد الله بن مسعود: «إنّا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

وبسنده عن ابن عمر قال: «كان الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبي والأعمىٰ ولا يرزقون العمل به».

وقال عبد الله بن عمر: «لقد عشنا دهرًا طويلًا وإن أحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة علىٰ محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالًا يؤتىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلىٰ خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»[٢].

---

(١) (١/ ٤٠).

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين (١/ ٩٩)، سنن البيهقي الكبرىٰ (٣/ ١٢٠).

٣- أركان التدبر:

ومما سبق يتضح أن التدبر لابد فيه من أركان وهي:

١ - التفكر والتفهم لما ذكره الله في كتابه، والنظر في عاقبة ما تئول إليه هذه الأمور التي ذكرها الله، والاعتبار والاتعاظ بذلك؛ بحيث يُتَوَصَّلُ معرفة حكم المُشَاهَد مما ليس بمُشَاهَدٍ، فيحصل بذلك الإيمان في القلب والتصديق والمعرفة، والتعظيم لأمر الله ﷻ.

٢- حصول أثر ذلك الإيمان على الجوارح.

وبدون ذلك لن يحصل التدبر الأمثل للقرآن، فليس المقصود مجرد قراءة القرآن الكريم، فهذا وإن كان فيه خير كثير، إلا أنه ليس هو التدبر الأمثل المطلوب من المسلم.

وهذا يدل عليه ما جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم في صحيحيهما: عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ.

وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ».

ورواه أبو الفضل الرازي في كتابه فضائل القرآن (ص١٦)، وزاد: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كمثل الأترجة طيبة الطعم»، فزاد لفظة: «ويعمل به»، وهي في معنى الحديث.

وأخرج الطبراني في الكبير: عَنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ رَيْحَانَةٍ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَلا طَعْمَ لَهَا.

وَمَثَلُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالْقُرْآنِ وَلا يَقْرَؤُهُ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَلا رِيحَ لَهَا.

وَمَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ.

وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا خَبِيثٌ وَرِيحُهَا خَبِيثٌ».

❊ ❊ ❊

٤- مقاصد القرآن والتدبر فيها:

والتدبر للقرآن الكريم فيه النظر إلىٰ مقاصد القرآن العظيم، فهو كتاب هداية وإعجاز، تضمن ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة!

والقرآن العظيم يدور حول ثلاث قضايا أساس فيه، وهي:

أولًا: تقرير التوحيد وأمور العقيدة.

ثانيًا: تقرير الأحكام الشرعية: الحلال والحرام، والأمر والنهي.

ثالثًا: ذكر قصص الأنبياء والسابقين، وأخبار الكفار والمشركين، وأحوالهم مع رسول رب العالمين.

والمسلم في قراءته للقرآن العظيم يتفهم هذه المقاصد الكبيرة، ويستفيد مما فيها، ناظرًا ومتفكرًا ومتعظًا، وهذا سر ختم الكثير من الآيات بما يفيد طلب التفكر، والرشد، والعبرة، والعظة، والرجوع إلىٰ الصواب.

فمن ذلك فيما يتعلق بالأحكام وبيان الحلال والحرام: قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

وفي أمور العقيدة وما يتعلق بها: في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام:٦٥].

وفي قصص السابقين: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وفي أخبار من كان وقت الدعوة: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣].

وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٦].

وعمم في القرآن جميعه؛ فقال: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٥١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:٦٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه:١١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان:٥٨].

وليلاحظ أن بعض مقاصد القرآن تأتي ممتزجة؛ فقد تأتي القصة متضمنة بيان أمر في العقيدة، وتشير إلىٰ حكم شرعي، كما تراه في المسائل التي يورد الفقهاء فيها ما يسميه الأصوليون: شرع من قبلنا، فهو شرع لنا ما لم يأت في شرعنا ما يخالفه؛ لعموم قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠].

* * *

٥- وسائل التدبر:

للتدبر وسائل مهمة وهي ميسرة للمسلم، فمن ذلك:

الوسيلة الأولى: قراءة القرآن العظيم، وتدارسه وفهم معانيه، وليس المقصود هنا بالفهم أن يفهمه كفهم العلماء المجتهدين، أو بمصطلحات أهل العلم، إنما الفهم الذي يحقق معنى الآية من جهة دلالتها العامة!(١).

(١) أسوق هنا كلام الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان عند الآية ٢٤ من سورة محمد: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، باختصار وتصرف مقتصرًا على المسألة الأولى من المسائل التي أوردها تحت تفسيره للآية، لعلاقتها بهذه القضية المهمة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الهمزة في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ للإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير: أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله: وحذف متبوع بدا هنا استبح....

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (أم) فيه منقطعة بمعنى بل؛ فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا لفهم قرآن.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله جاء موضحًا في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

وقد ذم -جل وعلا- المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [الكهف:٥٧] الآية.

=

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢].

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التدبر، وقد شكا النبيﷺ إلىٰ ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]. وهذه الآيات المذكورة تدل علىٰ أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لابد منه للمسلمين.

وقد بين النبيﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس، كما ثبت عنهﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به، وبالسنة الثابتة به وبالنسبة الثابتة المبينة له من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم علىٰ هدىً، ولا يخفىٰ علىٰ عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسولهﷺ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة، وانتفاء الحاجة إلىٰ تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل. وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة، فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعًا وللأئمة رحمهم الله.

مسألة:

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلىٰ دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلًا، بل الحق الذي لا شك فيه:

....

=

أن كل من له قدرة من المسلمين علىٰ التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما. أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعًا، وأما ما علمه منهما علمًا صحيحًا ناشئًا عن تعلم صحيح فله أن يعمل به ولو آية واحدة أو حديثًا واحدًا، ومعلوم أن هذا الذم والإنكار علىٰ من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ومما يوضح ذلك: أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار ليس أحد منهم مستكملًا لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلًا، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتىٰ يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترىٰ.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذن فدخول الكفار والمنافقين في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله علىٰ الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به.

وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعًا، ولا يخفىٰ أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة من الكتاب والسنة لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد حتىٰ تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أن ما ذكره صاحب مراقي السعود تبعًا للقرافي من قوله:

مـن لـم يكـن مجـتهدًا فالعمـل   مـنه بمعنـىٰ النص ممـا يحظـل

لا يصح علىٰ إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلىٰ دليل.

ومن المعلوم أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ومن المعلوم أيضًا أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة علىٰ حث جميع الناس علىٰ العمل

=

....

=

بكتاب الله وسنة رسوله أكثر من أن تحصىٰ، كقوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتي»، وقوله ﷺ: «عليكم بسنتي...» الحديث. ونحو ذلك مما لا يحصىٰ. فتخصيص جميع تلك النصوص، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة علىٰ غيرهم تحريمًا باتًّا يحتاج إلىٰ دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بآراء جماعات من المتأخرين المقرين علىٰ أنفسهم بأنهم من المقلدين. ومعلوم أن المقلد الصرف لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء.

وقال صاحب مراقي السعود، في نشر البنود في شرحه لبيته المذكور آنفًا ما نصه: يعني أن غير المتجهد يحظل له. أي: يمنع أن يعمل بمعنىٰ نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي. اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له ولا للقرافي الذي تبعه في منع جميع المسلمين غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتىٰ يثبت ورود الناسخ، والعام ظاهر في العموم حتىٰ يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق حتىٰ يثبت ورود المقيد، والنص يجب العمل به حتىٰ يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عمومًا كان أو إطلاقًا أو غيرهما حتىٰ يرد دليل صارف عنه إلىٰ المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام حتىٰ يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين، حتىٰ حكوا علىٰ ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها، وقد أوضح ابن القاسم العبادي في الآيات البينات غلطهم في ذلك في كلامه علىٰ شرح المحلي لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي ﷺ قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافًا لابن سريج اهـ.

وعلىٰ كل حال فظواهر النصوص من عموم وإطلاق ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه من مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله؛ فادعاء كثير من المتأخرين أنه يجب ترك العمل به حتىٰ يبحث عن المخصص والمقيد مثلًا خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم بعض آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي ﷺ ليعمل بها، تعلم ذلك النص العام، أو المطلق، وتعلم معه، مخصصه ومقيده إن كان مخصصًا أو مقيدًا، وتعلم ناسخه إن كان منسوخًا، وتعلم ذلك سهل جدًّا بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتد بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثًا فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتىٰ يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، علىٰ القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] الآية.

وهذه التقوىٰ التي دلت الآيات علىٰ أن الله يعلم صاحبها بسببها ما لم يكن يعلم لا تزيد علىٰ عمله بما علم من أمر الله وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم؛ فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتىٰ يحصل رتبة الاجتهاد المطلق هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن حتىٰ يحصلوا شرطًا مفقودًا في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا علىٰ الله وعلىٰ كتابه وعلىٰ سنة رسوله هو كما ترىٰ». اهـ

يقول **الصنعاني** صاحب سبل السلام: «إن من قرع سمعه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل:٢٠] يفهم معناه دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير...

فياليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيها وفهم تراكيبها ومبانيها، حتىٰ جعلت كالمقصورات في الخيام، ولم يبق لنا إلا ترديد ألفاظها وحروفها»[1]. اهـ

ومثل هذا الفهم يحصله المسلم بمراجعة كتب التفسير المتيسرة كتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن سعدي ونحوها، وقد كان السلف علىٰ هذا.

ذكر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة تفسيره الأخبار التي رُويت في الحض علىٰ العلم بتفسير القرآن، ومن كان يفسِّره من الصَّحابة، وأورد فيه جملة من الآثار في ذلك منها:

عن ابن مسعود، قال: «كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتىٰ يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ».

عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلَّموا عَشْر آيات لم يخلِّفوها حتىٰ

(١) إرشاد النقاد إلىٰ تيسير الاجتهاد (ص ٣٦).

يعملوا بما فيها من العمل، فتعلَّمنا القرآن والعمل جميعًا»[١].

عن مَسْروق، قال: قال عبد الله: «والذي لا إله غيره، ما نزلتْ آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلتْ؟ وأينَ أنزلت؟ ولو أعلم مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتاب الله مِني تنالُه المطايا لأتيته».

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي حَثِّ الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:٢٧-٢٨].

وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عبادَه وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتّعاظ بمواعظه ما يدل على أنَّ عليهم معرفةَ تأويلِ ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام. إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به.

(١) ولفظ هذا الأثر كما في رواية أبي الفضل الرازي في كتابه فضائل القرآن (ص١٧): «إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يتعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا».

فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل، كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: اعتبر بما فيها من الأمثال، وادّكر بما فيها من المواعظ. إلا بمعنىٰ الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم.

فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر، بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعدَ العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها؛ فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: اعتبرْ بها. إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا؛ وإلا بمعنىٰ الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلًا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبَّره بعدُ، ويتعظ بحِكَمِه وصُنوف عِبَرِه.

فإذْ كان ذلك كذلك -وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره وحثهم علىٰ الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلًا، وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم -بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدمنا صفَته آنفًا- عارفون، وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسرين -من كتاب الله وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله»[1] اهـ

(١) تفسير الطبري (١/ ٨٠-٨٣).

الوسيلة الثانية: العمل بما فيه.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]: ما كان خلق رسول الله؟ فقالت: «كان خلقه القرآن»(١).

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يا معشر القراء، استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا»(٢).

ويروىٰ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا حملة القرآن أو يا حملة العلم، اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا، يباهي بعضهم بعضًا، حتىٰ إن الرجل ليغضب علىٰ جليسه أن يجلس إلىٰ غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلىٰ الله تعالىٰ» (٣).اهـ

ويروىٰ عن الحسن البصري: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتىٰ إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفًا، وقد والله أسقطه كله، ما يرىٰ القرآن له في خلق ولا عمل حتىٰ إن أحدهم ليقول: إني

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦).

(٢) صحيح البخاري (٧٢٨٢) كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٠).

لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متىٰ كانت القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء»[١] اهـ

ويذكر عن **الحسن البصري قال:** «أمر الناس أن يعملوا بالقرآن فاتخذوا تلاوته عملًا»[٢].

الوسيلة الثالثة: تعليمه والدعوة إليه.

وقد جاء في الحديث: «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**».

وعن عبد الله بن عمر قال: «عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم؛ فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفىٰ به واعظًا لمن عقل»[٣].

الوسيلة الرابعة: قيام الليل به.

لأنه أكثر الأوقات مواطأة للقلب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦].

والمصلي في قراءته وصلاته إنما يناجي ربه؛ عن البياضي ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج علىٰ الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: «**إن المصلي يناجي ربه ﷻ فلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم علىٰ**

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٤٢٠)، شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٥٤١)، الزهد لابن المبارك (١/ ٢٧٤).

(٢) تفسير السمعاني (ج٤/ ص١١٩)، مدارج السالكين (١/ ٤٥١)، تلبيس إبليس (١٠٩).

(٣) مشكل الآثار للطحاوي (١/ ١٧١).

بعض بالقرآن»[١].

عن عبد الله بن المبارك قال: «سألت سفيان الثوري قلت: الرجل إذا قام إلى الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته ؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»[٢].

وقال قتادة: «ما أكلت الكراث منذ قرأت القرآن»[٣].

الوسيلة الخامسة: استحضار القلب عند قراءته.

لأنه موجه من الله إليك، أوامره، ونواهيه، ونداءاته، وآياته رسائل من الله إليك!

قال ابن مسعود ﷺ: «من أراد العلم فعليه بالقرآن؛ فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[٤].

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣٤٤)، وصححه أحمد شاكر.

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١-٩٢).

(٣) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص٥٥)، وانظر: الدر المنثور (١/ ٢٧٨).

(٤) خرَّجه أخي أحمد في غاية البيان فقال: صحيح لذاته: أخرجه سعيد بن منصور في السنن (١/ ٧رقم١) ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣٢رقم١٩٦٠) حدثنا حديج ابن معاوية عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود عنه به.
وأخرجه مسدد في المسند (١٣/ ١٧رقم٣١٠٠-المطالب)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (١٥٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٣٦رقم٨٦٦٦)، وابن حزم في الإحكام (٨/ ٤٨٨) من طرق عن شُعْبَة عن أبي إِسْحَاقَ عن مُرَّةَ عن عبد اللهِ قال: من أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ فإن فيه عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ.
وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٩٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٧رقم ٣٠٠٠٩)، وعبد الله بن المبارك في الزهد (٢٨٠رقم٨١٤)، ومن طريقه الفريابي في

وقال الحسن بن علي ﷺ: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار»[1].

وقال **الحسن البصري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قراء القرآن ثلاثة أصناف:

فصنف اتخذوه بضاعة يأكلون به.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده، واستطالوا به علىٰ أهل بلادهم، واستدروا به الولاة كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثرهم الله.

وصنف عمدوا إلىٰ دواء القرآن فوضعوه علىٰ داء قلوبهم فوكدوا به في محاريبهم، وحنوا به في برانسهم، واستشعروا الخوف، وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقي الله بهم الغيث، وينصر بهم علىٰ الأعداء، واللهِ لَهَذَا الضربُ في حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر»[2].

=

فضائل القرآن (١٨١ رقم٧٨)، وأخرجه النحاس في القطع والإئتناف (١/ ٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٣٥رقم٨٦٦٤) من طرق عن أبي إِسْحَاقَ عنه به. وإسناده صحيح لذاته. ورواية شعبة عن أبي إسحاق قبل اختلاطه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٥): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

ومعنىٰ:يثور أي: ينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. انظر: النهاية لابن الأثير (١/ ٢٢٩)، ولسان العرب (٤/ ١١٠) لابن منظور.

(١) التبيان للنووي (٢٨).

(٢) فضائل القرآن ومعالمه لأبي عبيد (ص١٣٨) (الشاملة)، أخلاق حملة القرآن (ص٦٥) (الشاملة)، مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص٢٤) (الشاملة)، شعب الإيمان للبيهقي (٦/ ١٤٥) (الشاملة).

المحور الثاني: تزكية النفوس

ويشتمل هذا المحور على النقاط التالية:

١- بيان معنى تزكية النفس.

٢- أهمية تزكية النفس.

٣- أحوال النفس بحسب تزكيتها.

٤- بِمَ تحصل تزكية النفس.

وإليك بيانها:

١- بيان معنى تزكية النفس:

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء يقال: زكا الشيء إذا نما.

وفي الشرع: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ومن البدع والمعاصي؛ وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببًا لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقًا إلىٰ استعماله في الطاعات[١].

قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]؛ فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما؛ فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الرغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع فنما البدن.

فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما وقوىٰ واشتد وجلس علىٰ سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت؛ فلا سبيل له إلىٰ زكاته إلا بعد طهارته كما

(١) من كلام ابن كثير في تفسيره في أول تفسير سورة فصلت.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة علىٰ طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة علىٰ استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١]، ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية فدل علىٰ أن التزكي هو باجتناب ذلك.

وكذلك قوله تعالىٰ في الاستئذان علىٰ أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلَّا يطلعوا علىٰ عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطلع عليها كان ذلك أزكىٰ لهم كما أن رد البصر وغضه أزكىٰ لصاحبه.

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلىٰ:١٤-١٥].

وقال تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:٦-٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوىٰ الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء،

فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر»[1]. اهـ

وقد جاء عن السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، ما يؤيد هذا المعنى.

قال قتادة: طهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

وأما قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسسها؛ أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله ﷻ.

المقصود: أن معنى تزكية النفس هو تطهيرها من أدران الشرك والكفر وحوب المعصية والذنب.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا

(١) من كلام ابن القيم في إغاثة اللهفان.

تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢].

فقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾: لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾. وهذه كقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء:٤٩].

❊ ❊ ❊

٢- أهمية تزكية النفس:

يدل على أهمية زكاة القلوب وتزكية النفوس الأمور التالية:

١- أن الله ﷻ جعل ذلك مقصد بعثة الرسول ﷺ؛ فقد قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩].

وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٥١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة:٢].

وقد قال ﷺ فيما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» أخرجه أحمد، وبلفظ: «**إنما بعثت لأتمم صالحي الأخلاق**» عند البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في شعب الإيمان، وبلفظ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» عند البيهقي في السنن الكبرى، وفي مسند الشهاب.

٢- أن الله وصف الذين لا يتبعون الرسل ويعصون أمره سبحانه بأنهم محرومون من هذه التزكية يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤].

٣- أن الله جعل من حكم التشريع تزكية القلب والنفس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٢].

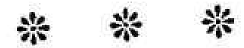
وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

٤- وأن في تزكية النفس أمان من خطوات الشيطان، قال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

٥- أن في تزكية النفس حياة القلب، وسلامته من الفتن والهوىٰ.

جاء في الحديث عن حذيفة عند مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ، قال: «تعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين: علىٰ أبيض مثل الصفا؛ فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه».



٣- أحوال النفس بحسب تزكيتها.

[وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس:

نفس مطمئنة.

ونفس لوامة.

ونفس أمارة.

وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرىٰ.

ويحتجون علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وبقوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، وبقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

والتحقيق: أنها نفس واحدة ولكن لها صفات؛ فتسمىٰ باعتبار كل صفة باسم:

فتسمىٰ مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلىٰ ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلىٰ لقائه عن الشوق إلىٰ ما سواه.

فالطمأنينة إلىٰ الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه علىٰ قلب عبده

تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه حتىٰ كأنه جالس بين يديه يسمع به، ويبصر به، ويتحرك به، ويبطش به؛ فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله، وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلىٰ الله، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلىٰ خدمته والتقرب إليه.

ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله علىٰ رسوله كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، فإن طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتىٰ بشيء سوىٰ الله تعالىٰ وذكره ألبتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز.

قضىٰ الله ﷻ قضاء لا مرد له: أن من اطمأن إلىٰ شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائنًا من كان، بل لو اطمأن العبد إلىٰ علمه وحاله وعمله سبله وزايله.

وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلىٰ سواه أغراضها بسهام البلاء، ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلىٰ سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلىٰ خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله؛ فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به.

والطمأنينة إلىٰ أسماء الرب تعالىٰ وصفاته نوعان:

طمأنينة إلىٰ الإيمان بها وإثباتها واعتقادها.

وطمأنينة إلىٰ ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية.

مثاله: الطمأنينة إلىٰ القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلىٰ مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها، ولا قدرة له علىٰ دفعها؛ فيسلم لها ويرضىٰ بها، ولا يسخط ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه؛ فلا يأسىٰ علىٰ ما فاته ولا يفرح بما أتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يُخلَق، كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١] قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلم.

فهذه طمأنينة إلىٰ أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم، وهي قدر زائد علىٰ الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلىٰ أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا؛

فلا يقدم علىٰ أمره إرادة ولا هوىٰ ولا تقليدًا، فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره.

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد مَن أزِمَّة التوفيق بيده: وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فَقْدِ كماله الذي جعل له مثالًا كمال العين بالأبصار، وكمال الأذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق؛ فإذا عدمت هذه الأعضاء القوىٰ التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك، وجعل كمال القلب ونعيمه، وسروره، ولذته، وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والإنابة إليه، والإقبال عليه، والشوق إليه، والأنس به.

فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت النور، والباصر من اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق، ولا سبيل له إلىٰ الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه، وأن يكون هو وحده مستعانه علىٰ تحصيل ذلك، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وأقوال المفسرين في الطمأنينة ترجع إلىٰ ذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطمئنة: المصدقة.

وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلىٰ ما وعد الله.

وقال **الحسن**: المصدقة بما قال الله تعالىٰ.

وقال **مجاهد**: هي النفس التي أيقنت بأن الله ربها المسلِّمة لأمره فيما هو فاعل بها.

وروىٰ **منصور عنه قال**: النفس التي أيقنت أن الله ربها وضربت جأشًا لأمره وطاعته.

وقال **ابن أبي نجيح عنه**: النفس المطمئنة: المخبتة إلىٰ الله.

وقال **أيضا**: هي التي أيقنت بلقاء الله.

فكلام السلف في المطمئنة يدور علىٰ هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل.

النفس اللوامة نوعان:

لوامة ملومة، وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

ولوامة غير ملومة، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها علىٰ تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده؛ فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام فهي التي يلومها الله ﷻ.

وأما النفس الأمارة: فهي المذمومة، فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من

طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾.

وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾»[1].

* * *

(١) من كلام ابن القيم في إغاثة اللهفان.

٤- بم تحصل تزكية النفس:

وتحصل هذه التزكية بمعرفة الله، ومعرفة أمره ونهيه، وحمل النفس على طاعة الله ومعرفته، وتعظيم شرعه، والعمل الصالح.

فسبيل التزكية هو ما يقوم عليه الدين وهما أصلان:

* ألا نعبد إلا الله.

* وألا نعبد الله إلا بما شرع.

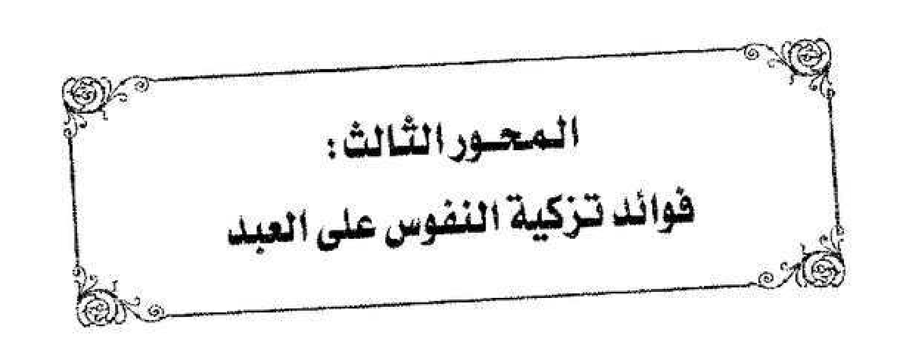
ويوضح ذلك: أن التزكية طهارة النفس من درن الشرك والإلحاد، وحوب المعصية، وذلك طريق الفلاح؛ و ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١].

و ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤].

و ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩].

وطريق الفلاح إنما هو بتقوى الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

* * *



المحور الثالث:
فوائد تزكية النفوس على العبد

العبد إذا زكّىٰ نفسه بطاعة ربه، نال سعادة الدنيا والآخرة.

ومن هذه الفوائد التي يحصلها المسلم بتزكية نفسه بطاعته لربه، الأمور التالية:

الأولى: نيل رضوان الله في الدنيا والآخرة:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه:٧٤-٧٦].

الثانية: حصول الفلاح، والسلامة من الحوب والتقصير:

قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]. أي قد فاز من زكىٰ نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوىٰ بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب.

الثالثة: حياة القلب:

قال الله تعالىٰ: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ

مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

فالله يحيي القلوب بتزكيتها بالطاعة كما تحيا الأرض بالمطر، وبالاستجابة للرسول ﷺ بطاعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر، تحيا النفوس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

الرابعة: الحياة حياة طيبة:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

الخامسة: النجاة من العذاب الأليم:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٤].

فلا يأت يحمل وزرًا يوم القيامة.

قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

السادسة: السلامة من المعيشة الضنك في الدنيا والآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧].

قال الشنقيطي: «ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم؛ أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه مُعرِض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به علىٰ التدبر، وقد شكا النبي ﷺ إلىٰ ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]». اهـ

السابعة: يقوى وازع الخير لديه وداعيه:

فقد جاء في الحديث عن عطاء بن السائب، عن مُرّة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق؛ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

الثامنة: أنه بتزكيته نفسه يكون من المتقين، وينال ما ورد في فضلهم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥].

التاسعة: أنه يحصل هداية القرآن العظيم:

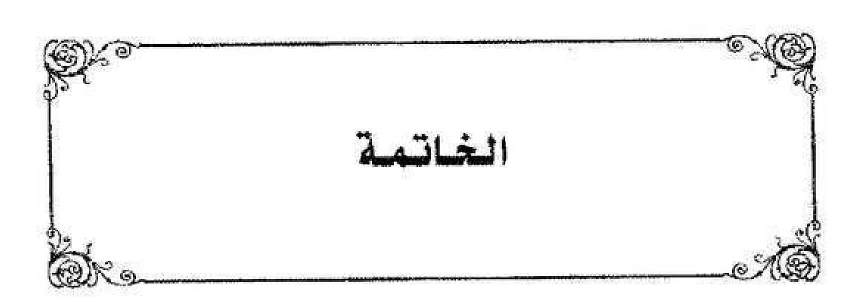
قال -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

العاشرة: يسلم من البدع والضلالات:

وقد وصف رسول الله أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فلا يتدبرونه ولا يتأثرون بما فيه؛ فدل ذلك أن من قرأ وتدبر القرآن حصل السلامة من طريق هؤلاء.

عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ -وَلَمْ: يَقُلْ مِنْهَا- قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَىٰ سَهْمِهِ إِلَىٰ نَصْلِهِ إِلَىٰ رِصَافِهِ فَيَتَمَارَىٰ فِي الْفُوقَةِ هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنْ الدَّمِ شَيْءٌ» أخرجه الشيخان.

❊ ❊ ❊



الخاتمة

ولنختم بمثال فيه تدبر لآيات من القرآن الكريم، واستجلاء ما فيها من المعاني والعبر والأحكام والآداب، التي بها تزكو النفوس، وبها يظهر أثر التدبر في ذلك؛ وهو ما ذكره ابن قيم الجوزية مثالًا للتدبر في آيات القرآن الكريم، لما ذكر زاد المهاجر إلىٰ ربه بطاعته سبحانه وتجنب مناهيه، وطريقة ذلك قال:

«ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، **حيث تستولي علىٰ الفكر وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القران مكان الخواطر من قلبه وجلس علىٰ كرسيه وصار له التصرف وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنًا** وهو يباري الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

فإن قلت: إنك قد أشرت إلىٰ مقام عظيم فافتح لي بابه واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف علىٰ عجائبه وكنوزه وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا فهل في البيان غير ما ذكروه!

قلت: سأضرب لك أمثالًا تحتذي عليها وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد:

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلىٰ معناها وتدبرتها تطلع منها علىٰ أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وأن امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار:

وكم قد تضمنت من الثناء علىٰ إبراهيم.

وكيف جمعت الضيافة وحقوقها.

وما تضمنت من الرد علىٰ أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علمًا عظيمًا من أعلام النبوة.

وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي ردها إلىٰ العلم والحكمة.

وكيف أشارت إلىٰ دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه.

وكيف تضمنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة.

وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما.

وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة علىٰ توحيده وصدق رسله وعلىٰ اليوم الآخر.

وتضمنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة وهم المؤمنون بها.

وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام وليس المراد بها حقيقة الاستفهام؛ ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنىٰ (قد) التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ومعنىٰ بديع؛ فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به وإحضار الذهن له، صدَّر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به؛ فتارة يصدره بـ (ألا).

وتارة يصدره بـ (هل) فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت، إما مذكرًا به، وإما واعظًا له مخوفًا، وإما منبهًا على عظمة ما يخبر به، وإما مقررًا له.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، و﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته ففيه أمر آخر؛ وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قِبَلنا؟!

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام وتأمل عظم موقعة من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم فإن في ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾؛ وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له، فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ متضمن بمدح آخر لإبراهيم حيث رد

عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلامًا. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم.

ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش، وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: «**وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا**».

الثاني: قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فحذف فاعل الإنكار وهو الذي كان أنكرهم كما قال في موضع آخر: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ ولا ريب أن قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطف من أن يقول: أنكرتكم.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف:

منها: قوله ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء، وهو يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد علىٰ ضيفه ثم يبرز بمرأىٰ

منه ويحل صرة النفقة ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأىٰ منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة (راغ) تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾ مدح آخر لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف مُعدَّة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلىٰ غير أهله إذ قرىٰ الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه؛ فإنه لم يرسل به وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزول، وهذا من نفائس الأموال ولد البقر السمين، فإنهم يعجبون به فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمن المدح وآدبًا آخر وهو: إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه مدح وأدب آخر؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام كلوا تقدموا ونحو هذا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر

منهم خوفًا أن يكون معهم شر؛ فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به.

فلما علموا منه ذلك قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام إسحق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ لا يولد لمثلي فأنى لي بالولد.

وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر، وكان بكره وأول ولده، وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها؛ إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر؛ فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال؛ فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة، والعدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء في مواضعها علىٰ أحسن وجوهها، ويتضمن الإرسال، وإثبات الثواب والعقاب.

كل هذا العلم من اسمه الحكيم كما هي طريقة القرآن في الاستدلال علىٰ هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة والإنكار علىٰ من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا وسدىٰ وباطلًا؛ فحينئذٍ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب؛ ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل علىٰ إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة علىٰ ذلك، وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدل علىٰ إمكان المعاد تارة، ووقوعه أخرىٰ؛ فيذكر أدلة القدرة الدالة علىٰ إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله عن غيرها كافية شافية موصلة إلىٰ المطلوب بسرعة متضمنة للجواب عن الشُّبَهِ العارضة لكثير من الناس.

وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا؛ لما رأيت في الأدلة التي

أرشد إليها القرآن من الشقاء والهدىٰ، وسرعة الإنصاف وحسن البيان، والتنبيه علىٰ مواضع الشبه والجواب عنها بما يثلج له الصدر ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها علىٰ العكس من ذلك، وليس هذا موضعَ التفصيل.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته، واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة علىٰ غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق، وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمنَ تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة علىٰ المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانًا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة علىٰ صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام؛ فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا

البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يُبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثناء الأعم من الأخص وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟!

وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾.

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

و أما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا: إنما هو التنبيه والتمثيل علىٰ تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه ويعتبر بهذا غيره والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»[1] اهـ

هذا ما تيسر لي في هذا الموضوع، جمعته وكتبته، سائلًا الله أن يرزقني القبول في الدنيا والآخرة، وأن يجعلني هاديًا مهديًّا.

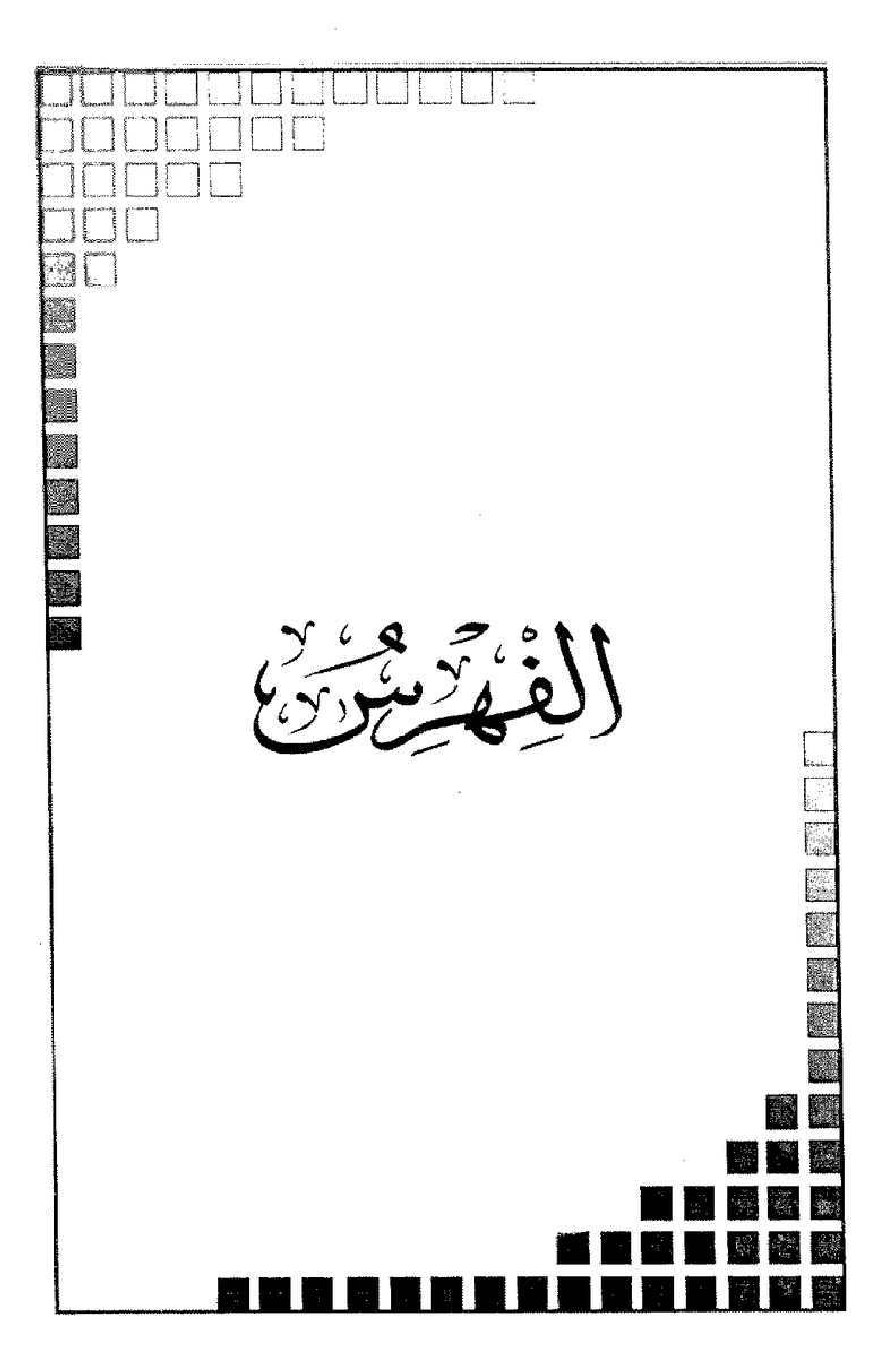
وصلِّ اللهم علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما صليت وباركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

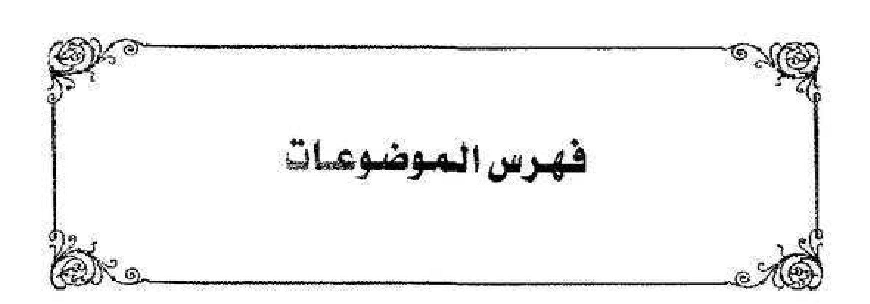
* * *

---

(١) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلىٰ ربه)؛ لمحمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية (ت٧٥٩هـ) – نشر: مكتبة المدني جدة – تحقيق: د. محمد جميل غازي (ص٦٣-٧٢).




الفِهرِس



فهرس الموضوعات